

جزائرية الرواية المهاجرة - إشكالية الحضور والانتماء -

The Algerianity of Immigration novel-Belonging and Presence -

* عبد الكريم كاتف

تاريخ النشر: 2023/12/31	تاريخ القبول: 2022/03/27	تاريخ الإرسال: 2021/12/25
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

لا يمكننا الحديث عن الرواية المهاجرة بمعزل عن انتمائها الحضاري، وحتمة التواصل الروحي الوطني المتأصلة فيها، باعتبارها وليدة التفكير العربي الجزائري، الذي مالبث أن تفجر إبان الاستعمار وخلال الفترة التي تلتها، وقد برزت أقلام أدبية مهاجرة تصدت للدفاع عن قضايا الوطن والشعوب المهاجرين، وقد سعى هؤلاء الكتاب للتعريف بقضيتهم والتأكيد على انتمائهم الحضاري وهويتهم الجزائرية، حيث تروم هذه الدراسة التأكيد على جزائرية الرواية المهاجرة من خلال طرح إشكالات أهمها: هل استطاعت اللغة والحياة الجديدة في المهجر أن تغير في فكر المبدع الجزائريو تؤثر على قناعاته ومواقفه؟

الكلمات المفتاحية: الكتاب، جزائرية، إشكالية، الانتماء، المهجر.

Abstract:

It is never easy to talk about immigration novel with out evoking its cultural belonging and the well rooted sureness of the spiritual communication in it because it is a result of Algerian Arabic thought that had blown up during colonization and after independence. May immigrant authors appeared to defend nation, people and immigrants causes. Those writers were engaged in presenting their cause to confirm their cultural belonging and Algerian identity. Therefore, this study aims at confirming the Algerianity of the immigration novel via the analysis of problematics such as: did the new language and life change the Algeria writer thought, convictions?

Key words: Immigration, Algerianity, problem.* جامعة العربي التبسي – تبسة - dzAbdelkarim.katef@univ-tebessa

*** **

1. مقدمة:

تنشأ بين (المكان/الوطن) وأهله علاقة ألفة وحب من نوع آخر تتصف هذه العلاقة بالتداخل والتفاعل بينهما، والانتماء للوطن يكون منذ لحظة الميلاد، منذ أن يفتح الإنسان أجفانه للنور، فالمكان الذي ينشأ فيه الإنسان وترعرع بين أحضانه، يُغرس في القلب والوجدان وترسم معالمه في الذاكرة، فمهما غير الإنسان المكان ومهما رأت عينه من جمال يظل الحنين دائما يراوده إلى مكانه الأول، وقد أحسن "أبو نواس" التعبير عن هذا المعنى حينما قال:

نقل فؤادك حيث شئت في الهوى فما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه دوما لأول منزل

ذلك أن وجوده الإنساني لا يتحقق إلا من خلال علاقته بالوطن الذي ينتمي إليه، وعلى قدر إحساسه به يكون وعيه بذاته، ففيه وحده تتأصل هويته، فالمسألة تتجاوز حدود المكان الهندسي الجغرافي إلى المكان الشعوري المعنوي الذي يحيل على دلالات لا تقف عند حدود حصر أو انتهاء، والجزائر بالنسبة لأبنائها - خاصة الكتاب والأدباء - مكان غير كل الأمكنة، مكان من نوع آخر، لا يقدر على قراءته وفك أبجديته إلا أبناءها البارين الذين امتزجوا مع حبات رملها وشمسها وهوائها امتزاجا يصعب فيه التفريق بينهم، وحتى الذين هجروها واضطروا للابتعاد عنها، غادروها بالجسد لا بالروح بل ظلوا يحملونها في قلوبهم أينما حلوا، وكل محاولة لإقصائهم عنها هي محاولة فاشلة بكل المقاييس، فهي بالنسبة إليهم الملاذ والأمن والأمان، الراحة والاطمئنان، السكينة والهدوء.

2. الروائي الجزائري المهاجر- اللغة في مقابل الانتماء:-

يضطر الإنسان في كثير من الأحيان أن يعيش في بلد غير بلده وفي أرض غير الأرض التي ترعرع فيها، بعد أن دفعت به ظروف الحياة إلى التغرب وهجر موطنه، فيجد نفسه مضطرا لمجاراة الحياة الجديدة، وقد يندمج مع المجتمع الجديد فينصهر في ثقافته ويتأثر بعاداته وتقاليده وفكره ولغته، حتى يكاد يصبح جزءا منه، وعندما يتعلق الأمر بالكتابة فهناك فرق بين من يكتب بلغة غير لغته الأم من باب الشهرة فقط، وبين من يكتب بلغة البلد الذي هاجر إليه ويعيش بين أهله وذويه، حيث يضطر للخضوع لسلطة هذه اللغة.

يستدعي الكاتب اللغة لتكون حليفته في أزمة الدفاع عن الوطن والتعبير عن عظمة الانتماء الروحي المتأصل والمتجذر في تلك النفوس الغيورة على وطنها، الضائعة في مدن الغربة والتي تحن إلى الوطن ورغيف الخبز، وحاله كحال غيره من أبناء هذا الوطن الذين فضلوا في بدايات الهجرة البقاء في أرضهم رغم المعاناة، وهذا ما تقوله إحدى شخصيات رواية "الربوة المنسية" لـ "مولود معمري": "من الأفضل تحمل هذا البؤس القاتل كل الحياة على الاغتراب لشهر في بلد مجهول"¹.

وكأن الخروج من الوطن في هذه الفترة عار وهروب من الواقع واستسلام وتضييع للأرض والقضية، ذلك أن الأرض والوطن هو الدواء لكل الأحزان والملاذ لكل موجوع وكل غريب، وتأكيد على مدى سعادة وحظ أولئك الذين يعيشون فيه ويتمتعون بخيراته حتى في لحظات الألم، فليس شرطا أن يتمتع بتفاحه وعنبه فقط بل حتى باللعب على رماله، هذا ما تغنى به أدباء المهجر الذين حملوا رسالات أوطانهم وكان أديهم "أدب الحياة، ولنسوف يخلد على طول الزمان إلى جوار آدابنا القديمة والحديثة، ويكون أدب كل عصر وأدب كل جيل من الناس مادام في جوانح الإنسان روح حية وقلب خفاق"².

في فترات قريبة أصبحت دواعي الخروج من الوطن ضرورة ملحة ولاسيما في فئة الشباب الذين وجدوا أنفسهم غرباء عن مجتمعهم وعن أسرهم، ويشعرون أن البقاء هو عنوان الضياع، هذا الخروج الذي فتح الباب على مصراعيه لفئة الروائيين

المهجرين الذين لخصوا نظرة المهاجر لبلده الأم على أنه الوطن المتخيل الذي كان يشعر فيه بأنه في حالة غثيان وبلادة وضيق، في مقابل البلد الآخر المُستقبل الذي اعتبره مصدر نور ونجاح وسعادة، في هذا البلد وجد المهاجر نفسه في بيئة ثلاثية وتساعد على الإبداع والتكوين، وأحس أنه في المكان الصحيح، وبعد أن يستقر هناك طويلا يراوده الحنين إلى أصوله ووطنه الأم، ويشعر بحجم المأساة التي يعيشها بعيدا عن بلده، فيرى في كل إنسان قادم من الوطن رسول محبة وسلام، حينها فقط يدرك قيمة الأرض والانتماء، قيمة اللباس العربي الأصيل، والأكلة الجزائرية بتعدد أطباقها.

حين ظن المهاجر أنه في المكان الصحيح وأن الهجرة ستغير حياته، تأكد لـ "مولود فرعون" أن "هؤلاء الأغبياء يهاجرون إلى فرنسا ويعيشون هناك حياة كلها أتعاب ومحن، ثم تسمعهم يدعون أن الفرنسيين هم السبب في بؤسهم وشقاءهم، فما أسخف دعواهم"³، هم يتغيرون كالحرباء يزورون الجزائر يألّفون حياة البادية ثم يعودون إلى فرنسا ليتغنوا بها، وهم يعيشون ظروفًا صعبة وفقرا مدقعا، يعملون في الأشغال الشاقة والمهينة في كثير من الأحيان، وحين يعودون إلى أرض الوطن يظهرون وكأنهم سفراء في الخارج، وقد لا تُغفل نجاح بعض المهاجرين في فرنسا، هذا النجاح الذي ارتبط في كثير من الأحيان بالتخلي عن المبادئ والقيم لدى البعض.

ففي رواية "الدروب الوعرة" لـ "مولود معمري" يقول "دحمان" أحد شخصيات الرواية: "اسمع يا ولدي إذا أردت أن تنجح في فرنسا فكن دائما جريئا وشجاعا، وينبغي ألا أنسى أنني في فرنسا لا في بلاد القبائل، ويجب علي أيضا أن لا أقيم أي وزن للمبادئ"⁴، فحين نقرأ لـ "مولود فرعون" رواياته "الدروب الوعرة"، "ابن الفقير" و"الأرض والدم"، ونقرأ لـ "مالك حداد" "التلميذ والدرس"، "الانطباع الأخير" و"سأهبك غزالة"، ونقرأ لـ "كاتب ياسين" رواية "نجمة"، فإننا نجدهم يتمعنون في وصف حالة المهاجرين وبلادة تفكيرهم وطريقة عيشهم، يتعرضون لوصف أماكن مبيتهم التي لا تشبه مبيت الأشخاص العاديين وأبناء الوطن، يعاملون معاملة اللاجئين، لا يحبهم أحد ولا أحد يهتم لأمرهم.

قد نؤمن بفكرة أن المهاجر الجزائري رحل لفرنسا وغيرها مجبراً بعدما تأكد من ضرورة الرحيل كونه يود تحسين ظروفه المعيشية أو البحث عن العمل والرزق، تقول "ذهبية" إحدى شخصيات رواية "الدروب الوعرة" "إنّا نملك في مغادرة البلاد شيء رائع فعليك إذا أن تبيع ما نملك من متاع ثم لنرحل معاً، ولتعرف أن حبيبك ذهبية لن تشجعك على البقاء في هذه القرية التعيبة [...] لننتقل إلى بلد آخر نعاشر فيه من نشاء فلا يدري أحد أين كنا، ولا من أين جئنا"⁵، وذلك نتيجة لما لاقته في بلدها من حيف وظلم واضطهاد، ومعيشة ضنكا وحياة بئيسة، فوقر في نفسها أن الخلاص في الهجرة والابتعاد، وكأن الجنة تفتح لها ذراعها هناك في الضفة الأخرى.

فقد كان للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الجزائر خلال فترة الاستعمار وما بعدها التأثير الجلي في متون ومضامين الفنون الأدبية، وهذا ما نجده جلياً في إبداعات الكتاب، فأمام تشنج أوضاع البلاد لجأ المبدع الجزائري إلى ترك الوطن وهاجر إلى بلد أجنبي غريب عنه ومختلف عن موطنه كل الاختلاف، بهدف تعويض النقص والبحث عن هويته الضائعة وتحقيق ذاته، وقد شكلت له فرنسا المنفى الاضطرابي الذي فرضه عليه الواقع المرير فالهجرة لم تكن خياراً أمام الكاتب بل كانت حتمية ووسيلة نجاة. لقد وجد الروائي الجزائري في المنفى مكاناً لممارسة حرية الكتابة والتعبير والكشف عن الأوضاع الهشة التي تمر بها البلاد، وكذا الحديث عن الذات المقهورة التي تمر بأزمة نفسية حادة ووجدت نفسها تعاني حالة من التشظي والضيق، وجعلها تشعر بفيض من الشجن والاعتراب على أرض الغربة، فيرضخ ظاهرياً إلى عادات وتقاليد وطباع وثقافة المجتمع الجديد ويتظاهر بأنه وجد ضالته هناك، وأنه وجد الحياة التي طالما جد في البحث عنها، لكم في قرارة نفسه يشده الحنين إلى أرض الوطن ورائحة الآباء والأجداد.

وفي المقابل نجد أن المواطن الجزائري في وطنه يضحي بالغالي والنفيس في سبيل الحفاظ على أرضه، وليس لديه أدنى استعداد لتركها والتخلي عنها، بل إن الموت من أجلها أقل واجب يقدمه لها، وأن سبيل النجاة والنجاح هو العمل الجاد والصبر والتحدي، والسعي هو الذي يؤمن استمرارية العيش في هذا الوطن، كما ورد في رواية

"الحريق" لـ "محمد ديب"، حيث يدور الحوار التالي بين شيخ عجوز وشاب حول موقف المواطن من الوطن وواجه نحوه: "كان الشيخ العجوز ينظر إلى بعيد يلاحظ هذا البلد ثم قال مسلما بلهجة تشبه أن تكون عاطفية:

- نعم هكذا نعيش في بلادنا يا بني!
- فسأله الشاب: ماذا تقول؟ كيف تعيش في بلادنا؟
- لا تفتن فيها.
- ولكن ليس هذا هو الموضوع، إن في وسع المرء أن يعيش دون أن يفتن وربما كان ذلك أفضل، وإنما المهم أن نعمل، إنما المهم أن نجد عملاً⁶.

فهؤلاء الوطنيين الشرفاء يشعرون بمسؤولية كبيرة تلقى على عاتقهم إزاء الوطن وأرضه، فهذه الأرض الطيبة أمانة ستحاسبهم عليها الأجيال القادمة، ولن يكن لهم مستقبلاً بعيد عنها، تقول إحدى شخصيات رواية "الحريق": "إذا تركتم أرضكم، فإن أولادكم، وأحفادكم، وأولاد أحفادكم، إلى آخر جيل من أجيال ذرياتكم سوف يحاسبونكم حساباً عسيراً، إذا تركتم أرضكم فلن تكونوا جديرين بهم، ولن تكونوا جديرين بهذه البلاد، ولن تكونوا جديرين بالمستقبل"⁷.

لقد ظل الأديب المبدع يعتز بأصله الجزائري وبغروبه رغم اغترابه الجسدي واللغوي، فهذا الكاتب "مالك حداد" رغم أنه كتب كل رواياته باللغة الفرنسية - التي طالما اعتبرها غنيمة حرب ومنفى بالنسبة إليه - ووسيلة للدفاع عن قضيته ليس إلا، يقول: "اللغة الفرنسية حاجز بيني وبين وطني، أشد وأقوى من حاجز البحر الأبيض المتوسط [...]"، وأنا عاجز عن أن أعبر بالعربية عما أشعره بالعربية [...]"، إن الفرنسية لمنفاي⁸، ومع هذا فقد اتسمت أعماله بتوظيف القاموس العربي والبربري في إشارات توحى إلى قمة الارتباط الروحي بالوطن والأرض، فالعربية دائمة الحضور في فكر "مالك حداد"، فهو وإن كتب بالفرنسية إلا أن تفكيره ورؤيته ومواقفه عربية جزائرية خالصة، فهو يتحدث عن أرض الجزائر وعن الإنسان الجزائري، ويصف شوارع الجزائر وشمسها وبحرها وصحراءها وقبائلها وطقوسها وعاداتها وأعرافها وكل شبر منها.

فلم تكن كتابته باللغة الفرنسية خيارا بل كان مكرها عليها، لأنه للأسف الشديد لم يكن يتقن اللغة العربية ولا يجيد الكتابة بها، لأن تعليمه كان باللغة الأجنبية التي فرضها المستعمر كسياسة موجهة وتخطيط من أجل القضاء على الهوية الجزائرية وطمس معالمها ومحاربة مبادئها وتعاليمها، وحاله كحال معظم الكتاب من أبناء جيله الذين كتبوا باللغة الفرنسية، كما تذهب إلى ذلك الباحثة "نور سلمان" في قولها: "لم تكن سبل التعبير بالعربية متوفرة في الجزائر خلال الاحتلال فلم تنشأ أفواج من القراء الملمين بها والقادرين على قراءة النصوص الطويلة، ولم تتطور هذه اللغة لتصبح أداة مرنة متنوعة الآفاق، تتخطى حدود الأغراض التقليدية"⁹.

رغم أن الرواية الجزائرية كتبت بلغة المستعمر إلا أنها أوجدت لنفسها مكانة مرموقة وسط الآداب العالمية ولقت الاعتراف المرجو لها باعتبارها تحاكي قضية شعب وأمة، وتسرد حكاية وطن أرهقه التعب، وطن يتنفس بأنائه البررة الذين تمسكوا به ولم يتركوه، والذين تركوها مجبرين غير مختارين، كان هدفهم العيش بكرامة فلم يوفر لهم الوطن ذلك، فخرجوا ليعودوا إليه فرحين منتصرين يشيدون به في كتاباتهم وجهودهم التي أبانت عن أصالة المهاجر الجزائري صاحب رسالة اللاعودة إلا بعودة الوطن، الجزائر التي تحكي الروايات أنها الأم الولود المنجاب، التي أنجنت أبطالا في كل زمان ومكان يتغنون بها ويرفعون رايها عاليا، وحتى وإن لم يتمكن أبنائها من الكتاب التعبير عنها باللغة العربية، فهم كتبوا بالفرنسية ليس عشقا لها وإنما لمقدرتها على إيصال صوت الكاتب وهمومه إلى العالم بأسره، فهي هو الأديب "كاتب ياسين" يؤكد "أنه عن طريق اللغة الفرنسية نجح في التوصل إلى التعبير عن عالمه الداخلي العربي وفهم مختلف معاناته، فاللغة الفرنسية تبقى - في رأيه- أكثر اللغات إمساكا وتعبيرا عن التناقضات بشكل واضح"¹⁰.

3. محنة الروائيين الجزائريين - ظروف وأسباب الهجرة:-

إن محنة الروائيين الجزائريين قديمة قدم الاستعمار الفرنسي، الذي شدد في معاملته ضد كل مثقف جزائري باعتباره الملمهم والمحرك لثورة شعبه، فسعى إلى تهجير كل من يملك حرفا من شأنه إثارة همم الجزائريين، وقد تعددت طرق التهجير واختلفت

متمثلة في الطرد المباشر والنفي غير المباشر الذي نشأ عن الممارسات الاستعمارية، وتضييق المجال أمام عدد كبير من المثقفين موازاة مع تفعيل الفكر الفرنسي ونشره في الساحة الأدبية الجزائرية، وأيضاً من خلال القرارات الجائرة التي كان يعاني منها الجزائري مقارنة بالفرد الفرنسي، فنجد في رواية "ابن الفقير" لـ "مولود فرعون" أن والد البطل "فورولو" لم يجد مناصاً آخر غير الهجرة التي تقيه جحيم المعاناة والفقر.

لقد عان المثقف الجزائري من الأحكام المسبقة التي لا تستند للحجة والدليل والتي جعلت أعماله مجرد أفكار إنشائية بسيطة، تفتقد إلى البراعة الفكرية وجماليات التشكيل الفني والأدبي، ولا ترقى لمستوى الكتابة الروائية العالمية، وهذا ما نجده عند بعض الذين تأثروا بأراء الكاتب والمفكر الفرنسي "جان ديجو" كما أشار إلى ذلك الناقد "أحمد منور" في قوله عن أصحاب هذا المذهب الذين تأثروا "في ذلك بأحكام الباحث الفرنسي الأب "جان ديجو" الذي وإن كان لا يبارى في كثرة مؤلفاته، وفي سعة اطلاعه على ما كتبه الجزائريون والمغاربة عامة باللغة الفرنسية، إلا أنه لم يكن منصفاً لأولئك الكتاب، فقد جردهم من أي مزية فكرية أو فنية، وجعلهم مجرد تلاميذ يتعلمون الإنشاء [...]، والحقيقة أنهم كانوا في أغلبهم أصحاب ثقافة فرنسية وعربية عالية، وكان منهم من يملك موهبة روائية غير عادية"¹¹، والشئ الذي يؤسف له كثيراً هو موافقة بعض النقاد الجزائريين لأفكار "جان ديجو" وإقبالهم عليها، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والاجتهاد والتبني بالعودة إلى المتون الأصلية وكتابات المبدعين الجزائريين، وهذا ما يراه "أحمد منور" أقرب إلى الحقيقة.

ليس من نافلة القول أن الروائيين الجزائريين تعرضوا لظلم كبير ولأحكام جائرة في فترات متعددة، فمنهم من زادت هذه الأحكام قوة وشجاعة للاستمرار والدفاع عن أفكاره، ومنهم من تراجع عن أفكاره وانتمائه وهم قلة قليلة جداً لم تكن تملك من الإرادة ما يؤهلها لمواصلة التحدي، أما عن أولئك الذين أرسوا مبادئ الحرية والدفاع عن الأرض فهم الروائيون الذين استمر أدبهم إلى وقتنا هذا، وهم الذين جعلوا من المرحلة الاستعمارية وقوداً لإشعال همم الجزائريين من خلال حركة أدبية واسعة، تصدت للفكر الفرنسي رغم التهجير الإجباري العمدي الذي مس الطبقة المثقفة.

إذ نجد أن "معظم المهجرين الأوائل في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر كانوا من العلماء والفقهاء والمشايخ والعائلات الثرية"¹²، وقد اعتمد المستعمر على هذه الطريقة ليضمن عدم انتشار الثقافة وصولها لكافة أبناء الشعب وتنويرهم، فكل ما كان يشغل بال المستعمر هو انتشار الأمية وجعل الشعب الجزائري يرفل في الجهل والتخلف حتى يسهل استعباده والسيطرة عليه، فهو شعب أبيّ صعب المراس وستزيده الثقافة والعلم تنويرا ووعيا وسيصعب إخضاعه وهذا ما كانت تخشاه فرنسا، وكان يقع على عاتق هؤلاء العلماء والمشايخ والفقهاء تعليم أبناء الشعب الجزائري ونشر الوعي بينهم، فقد "دافعوا أحسن دفاع وعبروا أصدق تعبير عن هوية الشعب الجزائري وعن كيانه ووجوده، وعن حقه في تعلم لغته وصيانة دينه والحفاظ على مقوماته الأساسية"¹³، ويذكر "أحمد منور" أن الكتاب في تلك الفترة - ويقصد فترة الأربعينيات من القرن الماضي - هم من دافعوا عن الوطن وكتبوا بحرارة تفوق كتابات من تلاهم، لكنه لا يقصي دور المهاجرين في فترات متقدمة.

لقد كان هدف فرنسا هو طمس الوجود العربي الإسلامي في الجزائر وتغيير كينونة الفرد الجزائري ودمجه في المجتمع الفرنسي، فقد سعت جاهدة "إلى تغيير نظام التعليم ولغته، إلى الحملات التبشيرية الواسعة [...]"، إلى تشويه تاريخ الجزائر [...]"، وقد أثرت هذه الحرب التي استمرت ما يزيد عن مائة وثلاثين عاما في الهوية الجزائرية أيما تأثير وأنهكتها وشوهتها، ولكنها لم تتمكن مع ذلك من القضاء عليها بفضل التضحيات الجسام التي قدمها أبناء هذا الشعب في الذود عن كيان الوطن وعن حريته"¹⁴.

حين تصبر لمائة وثلاثين عاما من الاستعمار فأنت لست وطنا فقط وتعجز الكلمات عن وصفك، هذا هو حال الجزائر التي تحدث عنها المؤرخ الأمريكي "سبنسر" عن "عجز السياسة الأوروبية الموحدة ضد الجزائر حينما جوبهت بأمة قوية في الداخل، مصممة متحدة"¹⁵، نعم هي مصممة متحدة حتى في الخارج، في الداخل ممثلة في جمعية العلماء المسلمين وفي الخارج ممثلة في بصمات أدباءها المهاجرين الذين شكلوا نخبة المجتمع وسلاح هذا الوطن البئيس.

كثيرا ما كانت الهجرة هي حلم المفكر الجزائري الذي عانى من شبح الاستعمار وما خلفه من خسائر مادية ونفسية باهضة، هذه الهجرة التي تزامنت مع موجة الانفتاح على الآخر، الذي ترك في الجزائر مساحة من الخراب التي جعلت المفكر الجزائري ينظر إليها بالعين الواحدة دون أن يحرك ساكنا، لما يشاهده في واقع مجتمعه ويوميات شعبه الذي أصبح يزرع تحت نير العبودية وتستنزف خيراته وتهب ثرواته وتعصر كرامته بالتراب، إلى جانب بروز أزمات وصراعات داخلية زادت من حدة الأزمة التي يعيشها تمكن الكتاب من التعبير عن هذه الأزمات والصراعات وتوصيفها وتشريحها، موضحين الأسباب والدوافع التي أدت إليها والأثار التي انجرت عنها .

إننا حين نعدد أسباب ودوافع الهجرة نجدها كثيرة ولا حصر لها كونها متعلقة بتوجهات وذهنيات وأهداف المثقف الجزائري، فمثلا؛ نجدها مادية حين وظف "مولود فرعون" في رواية "ابن الفقير" شخصية والد "فورولو" الذي عانى من أزمة إفلاس كبيرة، وحالة معيشية مزرية، جعلته يترك عائلته وأولاده وغادر إلى فرنسا بحثا عن لقمة العيش ومن أجل تحسين الظروف المعيشية لأسرته، ونجدها معنوية كما جسدها شخصية "عامر بن عامر" في رواية "الدروب الوعرة" لـ "مولود فرعون"، هذه الشخصية التي هاجرت للبحث عن ذاتها وهروباً من هاجس اليأس والفشل وحالة الضياع التي كان يشعر بها في وطنه الأم، فهو يبحث عن ذاته وأناه الضائعة، فقد تحمل الكثير وصبر حتى ما عاد في قوس صبره من منزعه وأخيرا قرر الرحيل، حيث يقول: "سأتحرق من كل قيد لأنني على كل حال لا أرضى بالقيود [...]"، ومهما تظاهرت بالصبر فإنني في الواقع أفكر بالرحيل"¹⁶.

بين الأسباب المادية والمعنوية للهجرة يعيش المهاجر في محنة وإفلاس روحي يحاول ملئ نفسه من الشتات لكنه يعجز عن ذلك، في عالم وبلد لا يعترف بالآخر، بلد يرفض الازدواجية الثقافية، لا يحفظ للإنسان كرامته، بلد يعلمك والخوف ويأمرك بالرحيل، يغرقك في الوحدة والغربة، فتصبح مختارا بين العودة إلى وطنك الأم أو البقاء في بلد يرفض وجودك، هذا البلد الثاني بلد الغربة، عنوان للشقاء والعذاب والوجع، دفع الروائيون للتعبير عن الحنين وألم الاشتياق للوطن الأم والتعبير عن صعوبة الاندماج

وغياب الاستقرار والأمن الذي كان ينشده هناك، وشعر أنه مجرد سراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء وإذا وصل إليه لم يجده شيئا.

لا شك في أن الكاتب الجزائري وجد في الكتابة متنفسا وملاذا للتعبير عن ذاته التعيسة التي تبحث عن الراحة والأمن، لكن غالبا ما ينتقل المهاجر من المناطق الفقيرة إلى المناطق الغنية، ظنا منه أنها غنية حسب ما يروى له أو آملا منه في حياة أفضل، وحين يصل إلى هذه المنطقة يتمنى لو أنه لم يفكر في ذلك الأمر بتاتا، ولم يغامر في الذهاب إليه، اعتقادا منه أنه الفردوس المفقود والجنة الموعودة فإذا به يجد جحيما لا يطاق وعذابا لا يحتمل، فقد عرف التاريخ البشري حركات هجرات متواصلة لأسباب مختلفة تدور معظمها في رغبة الإنسان لتحسين أوضاعه ليصل بعدها إلى قناعة راسخة مفادها أن وضعه الأول كان أفضل بكثير.

حملت الرواية هموم وأحلام الكتّاب فأصبحوا "أكثر واقعية في الحديث عن واقعهم وعن نفوسهم، وعكسوا تجاربهم في معظم رواياتهم"¹⁷، وهكذا كان حال الروائي الجزائري المهاجر الذي عبر عن إشكالية الانتماء والهوية، وما جنته الصراعات الثقافية الحضارية التي تجذرت في وعي الإنسان العربي الذي وجد إجابات عديدة لأسئلة كانت تقض مضجعه قبل أن يغادر الوطن، ووجد لها إجابات كافية توحى بمدى ضرورة التواجد بالقرب من الوطن والحفاظ على الموروث العربي الجزائري الذي يجسد الهوية الجزائرية.

4. رحلة الدفاع عن الوطن وتنامي القومية العربية في الخارج:

إن دعوى الدفاع عن الوطن لم تتأسس عند أولئك الذين يسكنون الأرض والوطن فقط، بل كانت أيضا نداءً من خارج الوطن من فئة قلبها معلق به، من أولئك الذين تأثروا بالغربة للحد الذي أحدث فيهم البعد عن الوطن شروخا نفسية وجراحا لم تندمل، ولا يمكن أن ننكر دور الغربة في تنمية الروح الوطنية وتنامي الإحساس بالقومية العربية، كل هذا ولّد حقدا عظيما ضد الوجود الفرنسي، وغضبا كبيرا لدى جميع فئات الشعب الجزائري، فتسابقت الكلمات لوصف جرائم الاستعمار والحالة

المعيشية المزرية التي عاشها الفرد الجزائري، وقد عبر الكتاب عن هذه الأوضاع غالبا بلغة غير عربية لأسباب تمثلت في:

- الحالة المأساوية التي عاشتها الجزائر والتي أدت إلى تناقضات اجتماعية وفكرية.
- تأخر الثقافة العربية في الجزائر على غرار الدول العربية الأخرى جعلت الجزائري يلجأ إلى اللغة الأجنبية لغلق هذا الفراغ.
- الممارسات الاستعمارية وتفعيل الفكر الفرنسي الذي أجبره على التعامل باللغة الأجنبية.

كل هذه الأسباب وغيرها أوجدت لنا جيلا من الكتاب الجزائريين المناضلين الأحرار، الذين تأكدوا أن الكتابة باللسان الفرنسي هي التي ستمكثهم من إيصال صوت القضية الجزائرية إلى العالم، وهي التي ستقوض الفكر الفرنسي وتؤلب الرأي العالمي عليهم، وتجلب الكثير من المناصرين للقضية من دعاة الحرية وحقوق الإنسان في العالم. لا يعرف الوطن إلا من عرف الغربة وعاش في متاهاتها وظلماتها، ولا يعرف الكتابة إلا من عان ويلات الاستعمار وعذاب الضمير، وهو الحال في الكتابة الروائية الجزائرية التي لم تنتج عن نفس هادئة متشبعة، بل هي خلاصة للوضع المزري الذي يعيشه الوطن ويعيشه الغرب، "فلم يكن القصد من الانتاج القصصي والروائي لهؤلاء الكتاب هو إبراز المواهب بقدر ما كان الهدف المنشود منه هو الإفصاح عن مرحلة الثورة بصورة خاصة والتعريف بها والدفاع عنها"¹⁸.

كثيرا ما سعت الرواية الجزائرية المهجرية إلى الحديث عن كل شيء يتعلق بالبيئة الجزائرية، وتعددت موضوعاتها وطروحاتها بتعدد روائيتها وباختلاف وجهات نظرهم، فنجد أنهم كتبوا عن الإنسان، الوطن، الحرية، القومية، الوضع المعيشي، الدين، الجنس، المرأة، الثورة، والسلطة، حيث استطاع الروائي الجزائري أن يبرهن عن مدى جزائرية الرواية المهجرية التي احتضنت مجدا كبيرا وتشبعت بتراث عظيم عظمة هذا الشعب، وبرهن الكاتب عن أصالته وعن عمق انتماءه للوطن الجزائري، وأكد على تفردة بشخصيته واعتزازه بهويته، ويعود الفضل الكبير في ذلك للكتابة الروائية، ذلك أن لمعرفة ثقافة وتراث أي أمة من الأمم علنا أن نعود لإبداع كتابها، إذ "يمكن اعتبار

الرواية بنصوصها الأساسية من المرويات الكبرى التي تسهم في صوغ الهويات الثقافية للأمم لما لها من قدرة على تشكيل التصورات العامة للمجتمع والتحولت الثقافية"¹⁹، ولمقدرتها على احتواء جميع النصوص بمختلف توجهاتها.

لا نجانِب الصواب إذا قلنا أن الإبداعات الروائية الجزائرية المهجرية لا تخلو متونها أبدا من فكرة الحنين الجارف للوطن، ووصف لحالة التشضي والضياغ والاغتراب التي يعيشها المغترب، وكأن كل أمله هو العودة إلى الوطن، فيظهر لنا في رواية "رياح القدر" للكاتب "مولود بن زادي" مدى معاناته في الغربة، يقول: "وما الحنين الجارف إلى الأوطان والأهل والأحباب الذي ما برح ينتابني ويمزقني وأنا أخط هذه الأسطر إلا شيء من ذلك"²⁰، وقد تتضح أزمة الحنين والاشتياق ودرجة الارتباط في ألفاظ وكلمات أصيلة اللهجة الجزائرية، وفي ألفاظ القاموس الوطني التي يتداولها المغتربون فيما بينهم، والتي يتداولها بكثرة شخصيات الرواية، فهي هو "مولود بن زادي" يقول: "ما أشد شوقي اليوم إلى بلادي التي أحيا بعيدا عنها في المهجر وإن كنت غائبا عنها بجسدي، فإنني لست بعيدا عنها أبدا بروحي وشعوري [...].، يجرفني تيار الحنين في طريقه، فأتدحرج وأسقط في بركة الألم والغم"²¹.

إن في كلام "مولود بن زادي" دلالات عظيمة على ارتباطه الشديد بوطنه وكأنه يريد أن يقول: ليست العبرة بأنني أسكن في وطني بل العبرة أن وطني يسكنني، والغربة هي غربة الروح وليست غربة الجسد، فهو يصف لنا شدة الألم والحسرة من جانب، ويغرق في وصف شدة ارتباطه بالأرض وأهله من جانب آخر.

لقد شكلت تيمة القومية والإحساس بالانتماء محورا أساسيا في الرواية الجزائرية المهجرية، التي رأت أن هدف فرنسا لم يكن هدفا ماديا فقط وطمعا في أراضيها وثرواتها، بل تأكدت أن الدوافع الفرنسية كثيرة من بينها طمس الثقافة الجزائرية، التي بقيت مستقلة بدينها وعاداتها وتقاليدها التي تميزها عن سائر البلدان العربية وغير العربية، والموروث السردى الجزائري غني عن التعريف فقد وجد الروائيون في تاريخ الجزائر رافدا ثريا لمواضيعهم، فقد عبروا عن كل ما اختلج في نفوس الجزائريين من آلام وأحزان ومن آمال في الحرية، من اشتياق وحنين للأرض المسلوقة، ومن أحلام الأطفال الصغار، من نداءات وصرخات للعيش بسلام ... لتتمكن الشخصية الروائية

من تجسيد جملة التحولات النفسية والاجتماعية والسياسية التي عاشها الشعب الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي، يقول الكاتب "ألبير كامو" في وصفه لمعاناة الشعب الجزائري: "لقد انتزع من ماضيه وأوقف في مستقبله، تقاليدته تحتضر وضاع أمله في تكوين ثقافة جديدة، إنه لا يملك لغة ولا علما، ولا فنا، ولا وجودا وطنيا أو عالميا، لا حقوقا ولا واجبات، إنه لا يملك شيئا ولم يعد شيئا يذكر، ولا يأمل شيئا"²².

كل ما تحاكيه الرواية المهجرية التي كتبت باللغة الفرنسية مستحيل أن ينسب لبلد آخر غير الجزائر، فهل عانى الشعب الفرنسي ما عاناه الشعب الجزائري؟ وهل ما تسرده الروايات والحقائق التاريخية من صراعات دامية وأوضاع مزرية وتحدي وصمود من أجل الأرض يحيل على المجتمع الفرنسي أو الأرض الفرنسية؟ فكيف لكتابات تتحدث عن وصف حالة شعب أبي مناضل ومجاهد أن تنسب لأدب آخر لمجرد لغته دون مراعاة لاعتبارات كثيرة وجروح وطن وأحاسيس شعب؟

إن الإيمان بجزائرية الرواية المهجرية وحضورها بقوة في الخطابات النهضوية الحديثة والمعاصرة هو الأساس والمطلب الحقيقي ولا اعتراف بحديث خلاف ذلك، ولا يهم في ذلك اللغة المعتمدة في الكتابة سواء أكانت اللغة العربية أم اللغة الفرنسية، مادام الفكر جزائري والروح جزائرية، والدماء التي تجري في شرايين الرواية هي دماء جزائرية خالصة، ف"الأدب الجزائري هو كل عمل أدبي مؤلف سواء باللغة العربية أو باللغة الفرنسية من قبل أي من سكان الجزائر الأصليين"²³، فبمجرد انتساب العمل إلى الفرد صاحب الأصول الجزائرية فهذا العمل جزائري بحت.

5. خاتمة:

نصل في الأخير إلى القول أن الإنتاج الروائي الجزائري المهجري فرض نفسه على الساحة الأدبية الوطنية والعربية والعالمية من خلال طاقات مبدعيه الذين تحملوا مسؤولية الدفاع عن هذا الوطن بالحرف والكلمة، تلبية للواجب الوطني والمطلب الشعبي والروح والهوية الجزائرية العربية.

*** **

6. الهوامش:

- 1- أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية - دراسة سوسيونقديية- أطروحة دكتوراه في النقد الأدبي الحديث، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، الجزائر، 2010/2011، ص 263.
- 2 - عيسى الناعوري، أدب المهجر، دار المعارف، ط03، القاهرة، مصر، 1977، ص 06.
- 3 - مولود فرعون، الدروب الوعرة، تر: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 05، الجزائر، 1990، ص 47-48.
- 4 - المصدر نفسه، ص 253.
- 5 - المصدر نفسه، ص 16.
- 6 - محمد ديب، الحريق، تر: سامي الدروبي، دارالهلل، ط1، الجزائر، 1970، ص 54.
- 7 - المصدر نفسه، ص 46.
- 8 - مالك حداد، ساهبك غزالة، تر: صالح قرمادي، الدار التونسية للنشر، ط1، تونس، 1968، المقدمة.
- 9 - عائشة بن حفصة، مستويات توظيف التراث في الرواية الجزائرية، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، 2015/2016، ص 16.
- 10 - أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ص 63.
- 11 - أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرتسي- نشأته وتطوره وقضاياها- دار التنوير للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 2013، ص 05.
- 12 - طاهر سيقاق، إسهامات الجزائريين في الحقل الثقافي السوري بين 1830-1914 م، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، غرداية، الجزائر، ع 11، س 2011، ص 172.
- 13 - أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 06.
- 14 - المرجع نفسه، ص 07.
- 15 - مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ج 1، دار الأمة، ط02، الجزائر، 2007، ص 24.
- 16 - مولود فرعون، الدروب الوعرة، ص 227-228.
- 17 - سالم الموش، صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 01، بيروت، لبنان، 1988، ص 151.
- 18 - محمد صالح الجابر، الأدب الجزائري المعاصر، دار الجبل للطبع والنشر والتوزيع، ط 01، سوريا، 2005، ص 154.
- 19 - عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة -تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة النشأة-، المركز الثقافي العربي، ط 01، الدار البيضاء، المغرب، 2003، ص 14.
- 20 - مولود بن زادي، رياح القدر، داركرم، دط، القبة، الجزائر، 2004، ص 3-4.
- 21 - مولود بن زادي، رياح القدر، ص 05.

- 22 - أم الخير جبور، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، ص 18.
- 23 - عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، الجزائر، 1982، ص 50-51.